

الأمثل في تفسير كتاب القرآن المنزل

[560] الآية يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) التفسير التقوى أعلى القيم الإنسانية: كان الخطاب في الآيات السابقة موجهاً للمؤمنين وكان بصيغة: (يا أيها الذين آمنوا) وقد نهى الذكر الحكيم في آيات متعددة عمداً يُوَقِّع المجتمع الإسلامي في خطر، وتكلام في جوانب من ذلك، في حين أن الآية محل البحث تخاطب جميع الناس وتبيِّن أنهم أصل يضمن النظم والثبات، وتميِّز الميزان الواقعي للقيم الإنسانية عن القيم الكاذبة والمغريات الباطلة. فتقول: (يا أيها الناس إننا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا). والمراد بـ(خلقناكم من ذكر وأنثى) هو أصل الخلقة وعودة أنساب الناس إلى "آدم وحواء"، فطالما كان الجميع من أصل واحد فلا ينبغي أن تفتخر قبيلة على أخرى من حيث النسب، وإذا كان القرآن سبحانه قد خلق كل قبيلة وأولادها خصائص ووظائف معينة فإننا ذلك لحفظ نظم حياة الناس الإجتماعية! لأن هذه الاختلافات مدعاة لمعرفة الناس، فلو كانوا على شاكلة واحدة ومتشابهين لساد الهرج والمرج في المجتمع البشري أجمع، وقد اختلف المفسرون في بيان الفرق بين "الشعوب" جمع شعب - على زنة صعب - (الطائفة الكبيرة من الناس) و"القبائل" جمع قبيلة فاحتملوا احتمالات متعددة: قال جماعة إن دائرة الشعب أوسع من دائرة القبيلة، كما هو المعروف في العصر الحاضر أن يطلق الشعب على أهل الوطن الواحد. وقال بعضهم: كلمة "شعوب" إشارة إلى طوائف العجم، وأمماً "القبائل" إشارة طوائف العرب. وأخيراً فإن بعضهم قال بأن "الشعوب" إشارة إلى انتساب الناس إلى المناطق "الجغرافية" و"القبائل" إشارة إلى انتسابهم إلى العرق والدم. لكن التفسير الأوَّل أنسب من الجميع كما يبدو! وعلى كل حال فإن القرآن بعد أن ينبذ أكبر معيار للمفاخرة والمباهات في العصر الجاهلي ويُلغي التفاضل بالأنساب والقبائل يتَّجه نحو المعيار الواقعي القيم فيضيف قائلاً: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم). وهكذا فإن القرآن يشطب بالقلم الأحمر على جميع الإمتيازات الظاهرية والمادية، ويعطي الأصالة والواقعية لمسألة التقوى والخوف من الله، ويقول إن لا شيء أفضل من التقوى في سبيل التقرب إلى الله وساحة قدسه. وحيث أن "التقوى" صفة روحانية وباطنية ينبغي أن تكون قبل كل شيء مستقرَّةً في القلب والروح، وربما يوجد مدعون للتقوى كثيرون والمتصِّفون بها قلة منهم، فإن القرآن يضيف في نهاية الآية قائلاً: (إن الله يعلم خبيراً). فالله يعرف المتِّقين حقاً وهو مطلع على درجات تقواهم وخلص نياتهم

وطهارتهم وصفائهم، فهو يكرمهم طبقاً لعلمه ويثيبهم، وأمّا المدّعون الكذّابة فإنّه يحاسبهم ويجازيهم على كذبهم أيضاً. * * *